

النقد المعيارى.. عند الشيخ أبي الحسن الندوى

بقلم الدكتور

منجد مصطفى بهجت

النقد CRITICISM أو CRITIQUE لغة يقترن بمعان كثيرة، فهو: نقد الدراهم، أي تمييزها، وله معان أخر كثيرة تذكرها المعاجم. وأما اصطلاحاً، فله تعريفات كثيرة، منها: أنه تعبير عن موقف كلي متكامل في النظر إلى الفن عامة، أو إلى الشعر خاصة، يبدأ بالتذوق.. ويعبر منه إلى التفسير والتعليل والتحليل والتقويم، خطوات لا تغني إحداها عن الأخرى، كي يتخذ الموقف منهجاً واضحاً، مؤصلاً على قواعد جزئية أو عامة، مؤيداً بقوة الملكة بعد قوة التمييز. وأما المعيارى في اليونانية CRITERION (١)، فهو على صيغة «مفعال» التي تدل على اسم الآلة، مثل «المسبار» و«المكيال»، و«الميزان».

والمعيار في لسان العرب من المكايل (٢)، ما عيّر، والمعيار ما تمايزت به المكايل، فالعيار صحيح واف، وعيرت به : أي سويته، والمعيار بالكسر العيار (٣).

يقال : عايروا ما بين مكاييلكم وموازينكم، وهو فاعلوا من العيار، ولا تقل عيروا، وعيرت الدنانير، وهو أن تلقي ديناراً ديناراً فتوازن به ديناراً ديناراً، وفي المحيط : عيّر الدنانير، وزنها واحداً بعد واحد (٤).

وفرق الليث بين : عايرت، وعيرت، فجعل عايرت في المكيال، وعيرت في الميزان.. (٥)، وجعل الرازي «عاير» في المكيال والميزان وخطأ «عيّر» (٦) فالعيار والمعيار يلتقيان مع النقد في أنهما يختصان بالدراهم والدنانير، ثم استعير المعنى للأدب بإصدار الأحكام عليه.



■ معرفة الندوي باللغات العربية والأردنية والإنجليزية

الشاعر عما سواه، وخطأ محاولة فرز خصائص في الشعر تجعله متفرداً.

كيف نفسر هذا التشابه بين هذين الناقلين: الأصبهاني والأمريكي، وليس لدينا دليل على اطلاع المتأخر على ما كتبه السابق بحوالي ألف عام؟! والراجح عندي أن أصالة الآراء النقدية تجعلها تلتقي وإن تباعدت بها الأزمان والثقافات والأعراق.. والذي نريده بالنقد المعيارى في بحثنا هو تجلية الأحكام النقدية ذات البعد المعيارى، التي يمكن أن تكون مقاييس ثابتة وأحكاماً راجحة، في موضوعات الأدب عامة والأدب العربى خاصة.

إن الشيخ الندوي يمكن أن يوازن بالنقد القلائل من العلماء، أمثال ابن تيمية (ت ٧٢٨هـ)، وابن قيم الجوزية (ت ٧٥١هـ)، وابن حزم (ت ٤٥٦هـ)، وابن عبد البر (ت ٤٦٣هـ)، من حيث تنوع ثقافته، وإسهاماته المتنوعة في مجالات أصول الدين ومقارنة الأديان، والكتاب والسنة، والسيرة والتاريخ، والدعوة والعقيدة، والأدب والنقد، وقد أتاحت ثقافته المبكرة هذا التنوع، في خوض مجالات العلوم الشرعية والإنسانية من باب واسع.

ويرى علي الطنطاوي أن معرفة الندوي باللغات الثلاث (العربية، والأردنية، والإنجليزية) فضلاً عن الفارسية، أتاح له أن يكون ثلاثة في واحد، وأنه جمع الفضل مثلاً (١٣).

وليس أدل على هذا التنوع، من الاطلاع على جهود الأخ محمد طارق زبير، في رسالته الصغيرة التي جاءت في تسع وثلاثين صفحة، جمع فيها عناوين رسائل وكتب الشيخ، مرتبة على حروف المعجم (١٤)، وبلغت مؤلفاته مائة وستة وسبعين بين رسالة وكتاب وبحث، وقد سلخ سبعين عاماً في التأليف، إذا علمنا أنه ألف أول كتاب سنة ١٩٣٠، وكان في السنة السادسة عشرة من عمره، إذ أنه ولد سنة ١٩١٤، وبقي على ذلك حتى فارق الحياة ١٩٩٩. حقاً لقد واصل كلال الليل بكلال النهار، ولم ينقطع عن الكتابة وحضور



■ د. نجيب الكيلاني

ولم أستطع الوقوف على كلمة «المعيار» مفردة أو مركبة «النقد المعيارى» في كتب المصطلحات الأدبية المتوافرة بين أيدينا (٨). وأما لفظة «عيار» فقد جاءت في المعجم المفصل: وعيار الشعر: هو إذا عرض على الناقد الحضيف فقبله واصطفاه، فيسمى الوافي، وإذا مجّه ولم يعجبه سمي ناقصاً، فعيار الشعر: الطبع، والنقاء، والإيقاع، والفهم، وسلامة الوزن، وصحة المعنى، وعذوبة اللفظ (٩).

وأقدم من استخدام لفظة «عيار» عنواناً لكتاب هو: ابن طباطبا العلوي (ت ٣٢٢هـ)، وقدم معياره النقدي على أساس من التذوق الفني دون سواه، وأكد ضرورة ثقافة الشاعر، واتباعه السنة العربية أو الموروثة (١٠).

ويضع معيار الشعر المحكم المتقن، ذلك إذا نقض بناؤه، وجعل نشره؛ لم تبطل فيه جدوة المعنى، ولم تفقد جزالة اللفظ (١١).

والمفهوم الأخير يطلق على «الأدب العالمي»، ذلك الأدب الذي لو نقل من لغته إلى لغات أخرى حافظ على قيمته وأهميته وتأثيره. وإذا انتقلنا إلى هذا المصطلح عند النقاد الغربيين، وجدنا أن T.C.Eliot استخدم المصطلح عنواناً لمجلة نقدية أصدرها لسنوات، ومن الطريف حقاً أن يلتقي إليوت — مع فارق الزمن والنزعة الفكرية — مع ابن طباطبا في مفهوم الشعر في أهمية التراث، الذي سماه ابن طباطبا الموروث في النقد، واتباع السنة، يقول إليوت: «فالحس التاريخي يرغب المرء أن يكتب وهو لا يحس أن جيله بأكمله، يسكن في عظامه وحسب، بل أن يحس أن أدب أوروبا برمته، منذ هوميروس، ومعه أدب بلاده برمته يقفان معاً، ويشكلان نظاماً في آن معاً، معه.

ولا يكتفى إليوت بهذا القيد على الشاعر، بل يسحب على النقد كذلك «إن جزءاً من

مهمة النقد هو الحفاظ على التراث، وأن مهمة الناقد أن ينظر إلى الأدب نظرة مستمرة، فيراه كاملاً واحداً» (١٢).

ولذلك خطأ إليوت النقد المعاصر له آنذاك في توجيهه نحو إيجاد مزايا ينفرد بها



■ الشيخ علي الطنطاوي

والفارسية.. أخذت له أن يجمع الفضل مثلاً.

مؤتمرات رابطة الأدب.

ولنا وقفة مع بواكير الأديب:

— ١٩٢٩ ترجم قصيدة القمر لمحمد إقبال (١٥).

— ١٩٣٠ نشر مقالاته في مجلة المنار عن سيرة أحمد ابن عرفان الشهيد.

— ١٩٣٢ نشر مقالاته عن القيمة الأدبية في الحديث النبوي.

— ١٩٣٤ نشر رسالته عن شاعر الهند أكبر الإله آبادي، فهو خلال السنوات الخمس الثانية من عقده الثاني يقدم أربعة أعمال أدبية، بما يدل — بشكل واضح — على النضج المبكر.

والبيئة التي أحاطت بالشيخ كان لها أثرها الكبير، ولا سيما البيت و«ندوة العلماء»، والعلماء الذين كانوا يقصدونها، أمثال تقي الدين الهلالي، و خليل بن محمد اليماني، وقد استمرت صلاته بالأول بعد أن ترك ندوة العلماء.

وفضلاً عن مؤلفاته المذكورة، لم يكن من العلماء الداهلين عن مجتمعهم، بل تفاعل مع ما حوله على مستوى العالم الإسلامي تفاعلاً كاملاً، وانتصر لقضايا المسلمين السياسية والثقافية بشكل واضح، من خلال المؤتمرات العالمية التي كان عضواً بارزاً فيها.

ولما كان عام ١٩٤٧ انفتح على العالم الإسلامي، برحلاته إلى دول آسيوية وإفريقية، وأوروبا وأمريكا، وألقى المحاضرات في معظم الجامعات العالمية، والمؤسسات العلمية فيها، ومنح الجوائز وشهادات التكريم من أكثر من جهة، ولم يكن حريصاً على الشهادات التي ربما قدح تسلمها في مروءته وشخصيته، ولهذا ترك بعضها ولم يتسلمها (١٦).

■ بين الأدب والنقد:

ونتوقف عند الشيخ بين الأدب والنقد، وكنت أشرت إلى أنه صاحب ثلاث نظريات، اثنتان في اللغة والأدب، وثالثة في تعليمها (١٧)، والنظرية مجموعة من الآراء والأفكار القوية، والمنسقة والعميقة والمتراصة، والمستندة إلى نظرة في المعرفة أو فلسفة محددة، تدرس الظاهرة.. في سبيل استنباط وتأسيس مفاهيم تبين حقيقته وآثاره (١٨) وإذا

كان النقد تابعاً ولاحقاً بالأدب، إذ إن معظم المنظرين في اللغة والأدب مارسوا النقد من خلال أحكامهم على النصوص التي كانت بين أيديهم، فإنك لا تستطيع أن تفصل بين معالم شخصية أبي الحسن أدبياً وبين معالمها ناقداً، فقد تكاملت فيه الصفتان، واجتمع فيه الأمران، ولنا أن نتساءل مجموعة من الأسئلة في محاولة للإجابة عليها:

○ أكان الشيخ مبدعاً؟ وما ميادين إبداعه؟

○ أكان الشيخ ناقداً؟ وما أبعاد ميادين نقده؟

○ هل قدم نظرية نقدية متكاملة؟

○ وهل استطاع أن يقدم تطبيقات عليها؟

○ ما المعايير النقدية التي اعتمدها؟

وما خصائصها؟

ونقرر أولاً أن صورة الشيخ المبدع نستطيع التوصل إليها من خلال كتب الاختيارات فضلاً عن قصص النبئين التي ألفها للأطفال (١٩). ومن ميادين الإبداع إسهامه في فنون النثر الأخرى، مثل أدب الرحلات، والسيرة الذاتية، وأدب التراجم، وأدب التقديمات.

ولا يقع اهتمامنا في حديثنا هذا بجوانب الأديب المبدع، ولكن لا بأس من أن نؤصل أولية الشيخ الندوي في مجال التنظير للأدب، فهو تاريخياً أول من تقدم بفكرة الأدب الإسلامي وأول من تبنى الدعوة إليه في العصر الحديث، وكان هذا في مطلع حياته حين بلغ السادسة والعشرين حيث ألف كتاب مختارات من أدب العرب سنة ١٩٤٠.

ثم جاء سيد قطب في مقالاته المنشورة سنة ١٩٥٢، ثم جمعها في كتابه (في التاريخ.. فكرة ومنهاج).

وجاء شقيقه محمد قطب في كتابه (منهج الفن الإسلامي) سنة ١٩٦١.

وبعده نجيب الكيلاني في كتابه (الإسلامية والمذاهب الأدبية)، سنة ١٩٦٣.

ثم عماد الدين خليل في (النقد الإسلامي المعاصر) سنة



■ ■ الشيخ الأولى في النظر للأدب.. وكان أول من نبه

١٩٦٣ (٢٠).

لقد واكب الشيخ حركة الأدب الإسلامي على المستويين الفردي والجماعي، الفردي من خلال مؤلفاته وكتابات، والجماعي من خلال إقامته أول مؤتمر للأدب الإسلامي عام ١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م وذلك في ندوة العلماء بمدينة لکنھو، وقد انتخب رئيساً للرابطة مدى الحياة.

ليس بين أيدينا كتاب نقدي خالص، له ولعل أبرز آرائه النقدية جاءت مبنوثة في كتابة نظرات في الأدب، وتأتي آراؤه الأخرى في دراساته الأدبية، ومع ذلك، فإن النظرية النقدية جاءت ذات معالم واضحة نستطيع أن نسجلها.

ويرى د. بن عيسى بظاهر أن الندوي كانت له نظرات نقدية جديدة في الأدب، فتحت أبواباً أمام الدارسين، وفتت أنظارهم إلى الكثير من القضايا والمقاييس والقواعد في الأدب الإسلامي ونقده (٢١).

يرى الشيخ الندوي أن النقد للأدب بمثابة الميزان للعمل الأدبي (٢٢)، فهو يستخدم لتقويم عمل من الأعمال الأدبية وتقييمه (٢٣)، وهو ينفع لضبط الأعمال الأدبية، وقد بدأ العمل النقدي في العرب، وجرى بصورة طبيعية خلال قرونهم الماضية، ويرى أن القرآن الكريم أفيد منه في تحديد قواعد منه، واستمر مترابطاً مع البلاغة.

كما يشير إلى التيارات الفكرية الجديدة التي غزت الفكر الإسلامي، وإلى طبيعة هذه الاتجاهات لدى الغرب، فقد كانت منبثقة أو منطبعة بطبيعة اتجاهات أدبائه، المادية والمسيحية، والعلمانية والإلحادية بحكم حياتهم، وهي لا تتلاءم مع طبيعة العرب واتجاهاتهم، التي انطبعت بالبيئة العربية، المختلفة طبيعياً واجتماعياً وفكرياً عن طبيعة الحياة في الغرب، وانطبعت بالنظرة الإسلامية السارية في مجالات حياتهم. فإذن تفتقر القواعد النقدية لدى الغرب إلى نظرات فاحصة، تنقي النقد من لوثات لا تتلاءم مع طبيعة الحياة العربية، واتجاهاتها الإسلامية.

ويقول في موضع آخر: «لقد مضى علينا قرن كامل، وأوروبا تغتصب شبابنا وعقولنا، وتنبت في عقولنا الشك والإلحاد والنفاق، وعدم الثقة بالحقائق الإيمانية والغيبية، والإيمان بالفلسفات الجديدة، الاقتصادية والسياسية، ونحن معرضون عن مقاومتها، معتمدون على ما عندنا من تراث، مضربون عن الإنتاج الجديد، حتى فوجئنا في

العصر الأخير بانحيار العالم الإسلامي» (٢٤).

فهو يؤكد على أهمية قيادة العالم الأدبية، وتأتي هذه القيادة مقرونة بالعلم والفكر، يقول: «إن القيادة العلمية والفكرية والأدبية للعالم كله من واجبات المسلمين، وهي حق للأمة الإسلامية، وماذا سيجر من شقاء وبلاء لو تخلت هذه الأمة عن منصبها ودورها القيادي، وما تلحق بها كذلك من خسائر وأخطار (إلا تفعلوه تكن فتنة في الأرض وفساد كبير)» (٢٥).

ومن الجوانب التي تكشف لنا عن شخصية الندوي النقدية، ثقافته الأدبية العميقة، وتذوقه للنصوص الأدبية على اختلاف أنواعها، يقول الشيخ الطنطاوي في مقدمة مختارات من أدب العرب: «حتى وجدت كتاب أبي الحسن، فإذا هو قد نفّض كتب الأدب والتاريخ نفّضاً، وحرّثها حرثاً، فاستخرج جواهرها، فأودعها كتابه» (٢٦).

ويقول محمد المجذوب: (٢٧) «ومتبع ما يكتب الشيخ الندوي يشعر بأن لعبارته الأدبية سحراً لا يتوافر في العادة إلا في العلية من أصحاب المواهب، الذين تعمقوا سر الكلمة، وتفاعلوا به، وكان لقلوبهم أكبر الأثر فيما يصوغونه، وتلك هي الخاصة الرئيسية...».

ولقد وصف الشيخ الطنطاوي أسلوب الندوي بأنه (نغمة علوية)، «يا أخی الأستاذ أبا الحسن! لقد كدت أفقد ثقتي بالأدب حين لم أجد عند الأدباء هذه النغمة العلوية» (٢٨).

أما الشيخ القرضاوي، فقد نوه بملكته الأدبية، وقلبه الحي ضمن خصال ستة، جعلها من المواهب والقدرات التي أعطاها الشيخ في دعوته (٢٩).

ومن نماذج الأمثلة التي تدل على أن الشيخ أوتي ملكة وموهبة في التدقيق الأدبي، - وهي أول خطوة في إدراك النقد - قوله يصف أسرار جمال الحديث النبوي: «ما ظنك ببشر، ذلّ بالقرآن لسانه، وامتزج القرآن بلحمه ودمه، وجرى فيه مجرى الروح، وأخذ بقلبه، واستأثر بلبه، بل أشرب في قلبه القرآن، وتمكن منه ما الله أعلم به، فإن لم يكن كلامه بعد ذلك من الوحي - فكما قال أخونا الشاعر مصطفى صادق الرافعي - قد جاء من سبيله، وإن لم يكن له من دليل، فقد كان هو من دليله، قد عبّد له الوحي طريق الكلام وذلكة».

دعوة للأدب الإسلامي في العصر الحديث.

كما كان بعد السيل مجراه مرتعا (٣٠)

■ النقد المعيارى

نجد النقد المعيارى عند القدماء (٣١)، كما يجيء عند الحديثين بأسماء مختلفة (٣٢)، ولا بد لنا — إن نحن بصدد التوقف عند الأحكام النقدية المعيارية عند الشيخ أبي الحسن — أن نشير إلى جهود الباحثين في هذا المجال، فقد توقف بن عيسى بإطاهر عند جوانب التأصيل الإسلامى للنقد، ووظيفة النقد الإسلامى عند الشيخ، وصفات الناقد المسلم، وأن النقد وسيلة لا غاية، والقيم وأثرها في النقد الإسلامى، كما توقف عند نظرات الشيخ النقدية التطبيقية في الشعر والنثر (٣٣).

وساق في هذه الموضوعات جوانب من نقادات الشيخ وآرائه. وجاءت الإشارة إلى آراء الشيخ أبي الحسن النقدية عند أنور الجندي، في سياق تأصيل نظرية الأدب الإسلامى (٣٤).

ونبه الدكتور عبدالباسط بدر إلى خصائص كتابة الشيخ الندوي، فرأى في نظراته في الأدب أنها تنظير للأعراف والقواعد والمقاييس، وريادة في دروب الأدب الإسلامى ونقده (٣٥).

وكان تعريف الشيخ المبكر للأدب الإسلامى:

«إنه تعبير عن الحياة، وعن الشعور والوجدان في أسلوب مفهوم مؤثر» (٣٦).

والتعريف هنا لا يشير إلى الإسلام وعلاقته بالأدب، لأن ذكر الإسلام متقدم في السياق، وقد علق الشيخ على تعريفه حينما سئل عن مصطلح الأدب الإسلامى فقال: «يعنى عندي بمعناه الواسع الهادف البناء» (٣٧).

وأما مفهوم الأدب الإسلامى عنده على لسان رابطة الأدب الإسلامى: فهو: «التعبير الفنى الهادف عن الحياة والكون والإنسان وفق التصور الإسلامى» (٣٨).

ويرتبط مفهوم الأدب الإسلامى في الإشارة إلى معالمة المهمة «ذلك الأدب الطبعي الذي يحمل الكلام المرسل، والتعبير البليغ، يحرك النفوس ويثير الإعجاب، ويوسع آفاق الفكر ويغرى بالتقليد، ويبعث في النفس الثقة» (٣٩).

ولابد للأديب الحاذق أن يتشرب بلبان التراث العربى، الذي يحتوي على أنفس ما أنتجته القرائح البشرية،

وأبدعته العقول السليمة، وفاضت به خواطر، وسالت به محابر، من أدب وشعر، وتاريخ وفن، وحكمة (٤٠).

«وأن المكتبة الأدبية، تكاد تكون ركازاً أدبياً، تنتظر همماً عالية، ونظرات واسعة، وأيدي أمينة قوية، وتصوراً للأدب صحيحاً واسعاً، وهياماً بالجمال والقوة والحياة، وبلاغة التعبير، ودقة التصوير، ومس القلوب، وإثارة النفوس، والقدرة على تحريك العاطفة، وحاسة الجمال (٤١) ويرفض أن يسير الأدب على خط واحد كما رسمه القدماء، وكان أحق بأن يتغير من الجمود والتقليد، ولايقع فريسة العصبية التقليدية، ويصبح أسيراً للعادات والرسوم، وفي هذا ينكر محمد إقبال على المحافظين

فيقول: «إن هذه المدرسة تدور كثور الطاحون حول محور واحد قديم» (٤٢).

والجودة الفنية لا ترتبط بالأديب على إطلاقه، فالنظر يكون إلى ما قيل قبل النظر إلى من قال. جاء هذا في سياق الإنكار على الأوساط التعليمية والأدبية في الهند.

ونرى الكاتب الواحد يجود قلمه مرة، ويتراجع أخرى، إذا كتب في موضوع علمي أو ديني، وإذا تناول موضوعاً أدبياً تكلف الإنشاء.. فقد سقطت كتب (أطواق الذهب) و(الدهش) للزمخشري، وابن القيم وليس لهما أية قيمة.

أما (صيد الخاطر) و(تلبيس إبليس) و(المفصل) و(الكشاف) فهي جديرة بالبقاء جديرة بكل اعتناء.

في الوقت نفسه يرى أن لعمالة الأدب وكباره فعالية وأثراً، في الشعراء والأدباء الذين يأتون من بعدهم، «فإن الأدب لايقدر على التأثير حتى يكون وراءه شخصية قوية، تفرض أثرها، وتفرض فكرها، ومدرستها ومنهج فكرها، على هذه اللغة وعلى الشعراء والكتاب من أمثال مولانا جلال الدين الرومي (٦٧٢هـ) والشيخ مصلح الشيرازي (٦٩١هـ) ومحمد إقبال (٤٣).

وأكثر مايتجه الحديث في التجربة الشعورية، أو الفنية، ومعايير النقد فيها تقوم على أربع: العاطفة، والمعنى،



■ كار الأديب الجادف الذي نشر بلبان الثراث العربي ■

والأسلوب، والخيال (٤٤).

■ ■ ■

فالعاطفة أو الانفعال والمشاعر عند الشيخ ركن ركن، وأساس متين يقوم عليه العمل الأدبي، والعاطفة والطبع صنوان لا يفترقان، وليست العاطفة المطلوبة المجردة من المغزى والهدف، فالنص الأدبي شعراً أو نثراً لا بد أن يكون فاعلاً ومؤثراً، ذا رسالة هادفة.. ويختار لنا قول محمد إقبال: «لا بارك الله في نسيم السحر، إذا لم تستفد منه الحديقة إلا الفتور والخمول، والذوي والذبول، إن غاية الإحسان في فن من فنون العلم والأدب لوعة الحياة الدائمة، وما قيمة شرارة تلتهب سريعاً وتنطفئ سريعاً؟ وما قيمة لؤلؤة كريمة أو صدف لامعة، لا تحدث اضطراباً في الأمواج، ولا اضطراباً في البحار؟ لا نهضة للأمم إلا بمعجزة، ولا خير في أدب ولا شعر إذا تجردا عن تأثير عصا موسى (٤٥).

وحينما تحدث عن رقة أشعار محمد إقبال يبرز أهمية العاطفة «إنني أتصور الأدب كائناتاً حياً له قلب حنون، وله ضمير واع، وله نفس مرهفة الحس، وله عقيدة جازمة، يتألم بما يسبب الألم، ويفرح بما يثير السرور» (٤٦).

ونتأمل في ألفاظ القلب والضمير والنفس والعقيدة، إذ هي مراكز العاطفة، ولننظر في صفات القلب والضمير «حنون وواع» وصفات النفس والعقيدة «مرهفة حازمة».

وعلى أن النقد الأدبي أفاض الحديث في الطبع والصناعة، فإن المرزوقي (ت ١٩٢٨هـ) يختصر ذلك فيقول في التفريق بينهما: «والفرق بينهما أن الدواعي إذا قامت في النفوس، وحركت القرائح أعملت القلوب، وإذا جاشت العقول بمكنون ودائعها تبعت

المعاني ودرت أخلاقها» (٤٧).

وفي المجال التطبيقي لهذا المعيار، يتجلى بوضوح حين يقتبس لنا من شعر محمد إقبال، وتبرز فيها بوضوح أهمية المشاعر والعاطفة، يجيب محمد إقبال الذين لاموه على توجيهه على كبر

سنه إلى المدينة «يا إخواني! ألا تعرفون أن الطائر يهيم على وجهه في الصحراء، ويخلق في الفضاء، فإذا أدبر النهار، وأقبل الليل، تذكر وكره، ورفرف بجناحيه إلى وكره، يطير إليه لياوي فيه، والمدينة وكر الروح، ووكر العقيدة، ووكر الإيمان.. فكيف لأطير إلى وكري حين دنا أصيل حياتي» (٤٨).

ويقرر أن سبب تفوق إقبال يعود إلى ثلاثة أسباب: قوة شخصيته، وقوة العقيدة، وقوة العاطفة» (٤٩).

إن هذا الزخم من العواطف الذي امتاز به شعر إقبال جعل الندوي يعترف فيقول: «وأشهد على نفسي، أنني كلما قرأت شعره جاش خاطري، وثارت عواطفه، وشعرت بدبيب المعاني والأحاسيس في نفسي.. وتلك قيمة شعره وأدبه في نظري» (٥٠).

ويعلل سر تفوق المدرسة الأدبية الإسلامية في الهند (٥١) في المديح النبوي، حيث يقول: إنهم لم يستطيعوا السفر لزيارة الرسول صلى الله عليه وسلم، فاستعاضوا عن السفر بالشعر، «ولم يزل السفر يزيد القلب والشوق، وهو الحمام الزاجل الذي لا يزاحمه شيء ولا يعوقه شيء، وإذا امتلأت الكأس طفحت، وإذا طفحت فاضت، ولا بد أن يعقب الرِّي السكر، ولا بد أن يعقب السكر التغني، وما أجمل ما قال الشاعر العربي:

سَقُونِي وَقَالُوا: لَا تَغْنِي وَلَوْ سَقُوا

جَبَالِ سُلَيْمَى مَا سَقَيْتَ لَغَنَتِ
وانجراف العاطفة عند بعض المذاهب أضعف أشعارهم» (٥٢).

وحين يحدثنا عن زيارته للرسول ﷺ، لا يستطيع أن يعبر بالألفاظ والكلمات، عن الأشواق والسرور واللذة التي عاشها، «وفي القلوب أشواق ولوعات، وفي العيون دموع غزار، وعلى اللسان أبيات من الشوق والحب، وقصائد في مديح النبي الكريم عليه أفضل الصوات والتسليم» (٥٣).

وحين تحدث عن شاعرية ظفر علي خان، وصف



■ محمد إقبال



■ مصطفى صادق الرافعي

يندوي على أنفسه ما أنجبته الفرائض البشرية.



إلى خير الإنسان، وبناء حياته (٦١).
ومن أسباب تأليفه (في مسيرة الحياة) - وهو كتاب أدبي يدخل في باب السيرة الذاتية - استعادة الذكريات، والتأمل في صنع الله، وتذكره قوله الله تعالى: ﴿سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أو لم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد﴾ السجدة: ٥٣ (٦٢).

ومن معايير النقد الحديث ما يؤيد منهج الندوي أنه يجمع الفائدة والمتعة، حين يؤدي العمل الأدبي وظيفته تأدية ناجحة؛ فإن نغمتي «الفائدة والمتعة» لا يجوز أن تتعايشا فقط، بل يجب أن تندمجا (٦٣).



وأما الأسلوب وما يطلق عليه المحدثون الشكل، وارتباطه بالعاطفة، فيشير إليه بقوله: «التعبير الدقيق من خواطر ومشاعر، ووجدانات، وكيفيات نفسية عميقة دقيقة، ووصف بليغ مصور للحوادث الصغيرة» (٦٤).

وانسياب الأسلوب بعفوية مهم جداً، ولأجله رفع الشيخ الندوي دعوته إلى النظر في كتب التراث، للوقوف على نصوص جديدة، ممثلة للأدب الحقيقي، فيه «عربية فنية، وأسلوب مطبوع يتدفق بالحياة» (٦٥) وهذه القطع الأدبية تتفوق في «قوتها وحيويتها، وسلاستها وسلامتها، وفي بلاغتها وجمال لغتها، على دواوين أدبية، ومجاميع ورسائل» (٦٦).

«تلك القطع الجميلة مليئة بالحياة، بعيدة عن الشروط والصفات، والتقاليد المفسدة له، الطامسة لنوره، التي لا بد فيها من السجع، والصناعة، والبديع، والمحسنات اللفظية» (٦٧).

ويرتبط بالأسلوب عناية الشيخ بالأدب المطبوع، واستثقاله للأدب المتكلف والمصنوع «إنه أدب طبعي وكلام مرسل، وتعبير بليغ» (٦٨) ويقول في موضع آخر: «الوصف الدقيق، والتعبير الرقيق، وعدم التكلف

أسلوبه بأنه يتدفق كتدفق العين المتفجرة» (٥٤). واختار لرسالته (إلى ممثلي البلاد الإسلامية) نموذجاً جديداً للأدب الإسلامي الدعوي - على حد قوله - كان في رسالته حرارة واندفاع، ولوعة قلب، وحرقة نفس، ودعوة إلى ثورة (٥٥).

لقد كانت العفوية وتجنب التكلف مبدأ لدى الشيخ الندوي في كتاباته، وقد التزمه في كتابه (في مسيرة الحياة)، فصرح أنه حينما يتحدث عن قصة حياته الشخصية يتحدث «في غير ما تكلف واهتمام» (٥٦).



وأما الركن الثاني: المعنى، فيطلق عليه المحدثون لفظ «المضمون».

حينما يتحدث عن إقبال: «إن أعظم ما حملني على الإعجاب بشعره هو الطموح والحب والإيمان.. هذا المزيج الجميل في شعره وفي رسالته.. وهي تندفع اندفاعاً قوياً إلى كل أدب ورسالة، يبعثان الطموح وسمو النفس، وبعد النظر، والحرص على سيادة الإسلام» (٥٧).

ولا يصح للأديب المسلم أن يجمع بين الكتابة في الموضوعات الإسلامية وغير الإسلامية، وبذلك يفقد أدبه هزة في النفوس المسلمة، وتأثيراً في القلوب المؤمنة، وقد وصف الدكتور طه حسين الذي خالفه الرأي في كثير من الأمور، بأنه يحسن كتابة شيء كثير لا يعتقده، ولا يتحمس له، وتلك صناعة لا يحسنها كل واحد (٥٨).

ووظيفة الأدب وغايته، هو أنه وسيلة بناء وإصلاح وخير، يؤثر في النفوس، ويغير في الاتجاهات والميول، ويحدث الانقلاب في الأخلاق والعمل والتفكير (٥٩)، وأما أدب التسلية والترفيه. وأدب الغزل والمدح، فله قيمة في مكتبة الأدب وفي قلوبنا.. ولكنه ليس الكل، وليس الغاية التي يقبل عليها الإنسان بالقلب (٦٠).

فالأدب ليس أداة تسلية وإلهاء نفس، وإزجاء وقت، أو قتل وقت كما يقول بعض الأدباء فحسب، إن الأدب من بين أكبر الوسائل للوصول إلى الأهداف النبيلة، وللتأثير في النفس الإنسانية، والحرص على سيادة الإسلام وتسخير الكون لصالحه، والسيطرة على النفس والآفاق، ولإنعاش الإنسان وتنشيط مشاعر الإنسانية المعاصرة

■ كانت العفوية وتجنب النكلف.. مبدأ لدى الشيخ في

(٨) ينظر، جبور عبدالنور : المعجم الأدبي، معجم المصطلحات الأدبية، مجدي وهبة، وكامل المهندس.

(٩) المعجم المفصل في الأدب، د. محمد التونجي، ٢/ ٦٦٥.

(١٠) بتحقيق الدكتور طه الحاجري، والدكتور زغلول سلام، القاهرة ١٩٥٦، وينظر تاريخ النقد الأدبي، إحسان عباس، ص ١٢٤.

(١١) المرجع نفسه، ص ٧، وينظر تاريخ النقد الأدبي ص ١٣٧.

(١٢) مقدمة الأرض اليباب، د. عبدالواحد لؤلؤة ص ١٤، وجاءت آراء آليوت هذه في دراسة مبكرة له، عنوانها «التراث والموهبة الفردية».

(١٣) مقدمة «في مسيرة الحياة»، ١/ ١٢.

(١٤) مؤلفات سماحة الداعية الإمام أبي الحسن علي الحسيني الندوي بالعربية، مكتبة حراء، لكهنؤ ١٩٩٨.

(١٥) في مسيرة الحياة ١/ ١٢٨.

(١٦) ينظر في حياته والبيئة العلمية «في مسيرة الحياة»، ٤٤/ ١ وما بعدها.

(١٧) ينظر مقالنا في مجلة المجتمع : أبو الحسن الندوي الداعية الأدبي، العدد ١٣٨٦، ص ٥٢.

(١٨) في نظرية الأدب، ص ١٣ (د. شكري عزيز الماضي، ط ١، ١٩٨٦).

(١٩) من كتبه التي تضمنت آراءه الأدبية، «شخصيات وكتب»، و«الطريق إلى المدينة»، و«روائع إقبال».

(٢٠) جهود الشيخ أبي الحسن الندوي، ص ٤٦ - ٤٧.

(٢١) الأدب الإسلامي ونقده عند الشيخ أبي الحسن الندوي ص ٨٨ مجلة إسلامية المعرفة العدد ١٢ سنة ١٩٩٨ م.

(٢٢) من كلمته التي أرسلها إلى الملتقى الدولي الثاني للأدب الإسلامي في الدار البيضاء ١٢-١٥/ أبريل/ ١٩٩٨، مجلة الأدب الإسلامي، العدد ١٨، ص ١٠٤.

(٢٣) يستخدم الشيخ لفظ «تقويم» و«تقييم»، وكأنه يفرق بينهما في الدلالة المعجمية، وليس الأمر واضحاً في المعاجم العربية في هذا التفريق.

(٢٤) الإسلاميات بين كتابات المستشرقين والباحثين المسلمين، ص ٨٠، نقلاً عن بحث بن عيسى باطاهر، إسلامية المعرفة، العدد ١٩٩٨/ ١٢.

(٢٥) من خطابه الختامي في مؤتمر رابطة الأدب الإسلامي في جامعة الهداية، جي فور ٢٢ - ٢٣ يونيو ١٩٨٦، «في مسيرة الحياة»، ١٦٧/ ٢.

(٢٦) مقدمة «مختارات من أدب العرب»، ٦/ ١.

(٢٧) علماء ومفكرون عرفتهم، ١/ ١٤٦.

(٢٨) مقدمة كتابه «الطريق إلى المدينة».

(٢٩) مجلة البعث الإسلامي، ع ١٤، مجلد ٤٢، رمضان ١٤١٧ هـ.

(٣٠) جهود الشيخ أبي الحسن الندوي، ص ١٥٢.

(٣١) تناول النقد القديم ضروباً من النقد المعياري، ولعل أنضجها ما عرف بـ «عمود الشعر» الذي تناوله الآمدي

والصناعة...» (٦٩)، ويشير إلى بلاغة الراوي العربي باقتداره على الوصف والتعبير والتصوير (٧٠).

ويشير إلى قطعة نثرية أخرى فيقول: «لطيفة السبك، بارعة في التصوير» (٧١).

ويثني على ظفر علي خان، الذي كان من كبار شعراء عصره، فقد وصفه بأن له اقتداراً عجباً على القوافي الصعبة، والبحور العويصة، وامتاز بجزالة اللفظ، وحلاوة الجرس (٧٢).



ويصل بنا الحديث إلى العنصر الرابع وهو الخيال، فهو جزء من الأسلوب، ووسيلة من وسائله القوية.

ويشير إلى أهمية الخيال في النص الأدبي، في المختارات التي اختاروها «تكون مادة لغوية، ومنبعاً فياً للخيل، والتعبير والكتابة» (٧٣).

وفي موضع آخر يشير إلى الخيال بتعبير «القدرة البانية» (٧٤).

ومن جماع هذه الأركان الأربعة تتجلى لنا أبعاد التجربة الفنية وأركانها، فيقول: «كانها لوحة فنية منسجمة متناسقة، قد أبدع فيها الفنان، أو صورة متناسبة قد أحسن فيها المصور كل الإحسان» (٧٥).

وبهذا نكون قد وقفنا عند أبعاد النقد المعياري عند الشيخ أبي الحسن الندوي، نسأل الله أن يتقبل منا عملنا ويجعله خالصاً لوجهه الكريم.

■ هوامش:

(١) أستاذ الأدب العربي في قسم اللغة العربية وآدابها، كلية معارف الوحي والعلوم الإنسانية، الجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا.

(٢) الأرض اليباب، ترجمة د. لؤلؤة، ص ١٤، (ط ٢)، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت (١٩٩٥).

(٣) لسان العرب، مادة «عير».

(٤) مختار الصحاح، مادة «عير».

(٥) المحيط، مادة «عير».

(٦) لسان العرب مادة «عير».

(٧) مختار الصحاح مادة «عير».

كتابانه.. أثرها في كتابه « في مسيرة الحياة ».

مشابهة عن العاطفة «الأحاسيس والمشاعر»، وعن المعنى «العقل والفكر»، وعن الأسلوب «اللغة والإيقاع والموسيقى»، عن الخيال «المخيلة والصورة».

(٤٥) نظرات في الأدب، ص ١٠٦.

(٤٦) نفسه، ص ١٠٥.

(٤٧) شرح حماسة أبي تمام، ص ١٢، تحقيق أحمد أمين وعبد السلام هارون، ط

القاهرة، ١٩٥١.

(٤٨) نظرات في الأدب، ص ١٠٥.

(٤٩) السابق، ص ١٠٥.

(٥٠) نفسه، ص ٨٢.

(٥١) نفسه، ص ٧٩.

(٥٢) صورتان متضادتان، ص ١٠٥.

(٥٣) في مسيرة الحياة، ١٩٦/١.

(٥٤) نظرات في الأدب، ص ٨٣.

(٥٥) في مسيرة الحياة، ١٩٨/١.

(٥٦) نفسه، ١٩٦/١.

(٥٧) نظرات، ص ٨١.

(٥٨) مختارات من أدب العرب، ١٤٠/١.

(٥٩) في مسيرة الحياة، ٢٥١/٣.

(٦٠) نظرات في الأدب، ص ٩٠.

(٦١) نفسه، ص ٨١-٨٢، ١٠٥، وينظر ما جاء في كلمته

التي ألقاها في مؤتمر بالهند، مجلة الأدب الإسلامي، ع ١٩ ص ١٢٥.

(٦٢) في مسيرة الحياة، ٢٢-٢١/١.

(٦٣) نظرية الأدب، ص ٢٩، رينيه ويليك، وأوستن واين،

ترجمة محيي الدين صبحي، بيروت، ١٩٨٧.

(٦٤) نظرات في الأدب، ص ٢٢.

(٦٥) السابق، ص ٣٠.

(٦٦) نفسه، ص ٣٠.

(٦٧) نفسه، ص ٣١.

(٦٨) نفسه، ص ٢٢.

(٦٩) نفسه، ص ٢٣.

(٧٠) نفسه، ص ٢٣.

(٧١) نفسه، ص ٣٣.

(٧٢) نفسه، ص ٨٣.

(٧٣) مقدمة مختارات من أدب العرب، ٦/١.

(٧٤) نظرات في الأدب، ص ٢٣.

(٧٥) نفسه، ص ٢٣.



(ت ٣٧٠هـ) والجرجاني (ت ٣٩٢هـ)، ثم استكمل على يد المرزوقي (ت ٤٢١هـ)، فقد حدده بسبعة شروط، ثم وضع لكل شرط معياراً، يقول: «أنهم كانوا يحاولون شرف المعنى وصحته، وجزالة اللفظ واستقامته، والإصابة في الوصف، ومن اجتماع هذه الثلاثة، كثرت سواثر الأمثال، وشوارد الأبيات، والمقاربة في التشبيه، والتحام أجزاء النظم والتثامها، على تخير من لذيق الوزن، ومناسبة المستعار منه للمستعار له، ومشاكله اللفظ للمعنى، وشدة اقتضائهما للقافية، حتى لا منافرة بينهما، فهذه سبعة أبواب هي عامود الشعر.. «وقد جعل المعايير التي تقوم عليها هذه الشروط: العقل الصحيح، والطبع، والرواية، والاستعمال، والذكاء وحسن التمييز، والفطنة وحسن التقدير، والطبع واللسان، والذهن وحسن الفطنة، وطول الدربة ودوام المداينة».

وقدم ثلاثة مستويات في النقد هي: ١ - أحسن الشعر وأصدق، ٢ - أحسن الشعر وأكذب، ٣ - أحسن الشعر وأقصه. لأن تجويد قائله فيه مع كونه في أسار الصدق يدل على الاقتدار والحق، ولأن قائله اختار الغلو وأسقط عن نفسه تقابل الوصف والموصوف، فامتد فيما يأتيه إلى أعلى الرتبة، وظهر قوته في الصياغة، وتمهره في الصناعة، فتصرف كيف شاء.

(٣٢) شرح ديوان الحماسة ص ٩-١٢ ط القاهرة ١٩٥١م.

(٣٣) ومنهم الدكتور محمد مندور الذي قدم خمسة معايير بعد استقرائه لجهود النقاد في دراسته المبكرة، النقد المنهجي عند العرب، ص ٣٨٥-٣٨٩ (دار نهضة مصر، القاهرة، د.ت)، وهي: ١ - مقاييس شعرية تقليدية ٢ - مقاييس لغوية ٣ - مقاييس بيانية

٤ - مقاييس إنسانية ٥ - مقاييس عقلية.

(٣٤) الأدب الإسلامي ونقده عند الشيخ أبي الحسن الندوي، ص ١١٠ وما بعدها، مجلة إسلامية المعرفة، العدد ١٢، ١٩٩٨.

(٣٥) أسلمة المناهج والعلوم، ص ١١٧، ١١٨، دار الاعتصام القاهرة، ط ١٩٨٦.

(٣٥) مقدمة «نظرات في الأدب»، ص ١٨.

(٣٦) نظرات، ص ٣٥.

(٣٧) مجلة الأدب الإسلامي، المجلد ١، العدد ٢، ص ٢٩.

(٣٨) مجلة الأدب الإسلامي في مقال: «شبهة المصطلح»، د.عبد القدوس أبو صالح، ٨٤ ص ٦، ويلاحظ أن النظام الأساسي لرابطة الأدب الإسلامي العالمية عرف الأدب الإسلامي بأنه: «التعبير الفني الهادف عن الحياة والكون والإنسان وفق الكتاب والسنة». ينظر النظام الأساسي، ص ٢٣ (ط ١٩٩١).

(٣٩) نظرات في الأدب، ص ٢٢.

(٤٠) مختارات من أدب العرب، ٣/١.

(٤١) مقدمة «الأدب الإسلامي وصلته بالحياة»، ص ١١.

(٤٢) الأدب الإسلامي فكرته ومنهجه، ص ٤٧.

(٤٣) نظرات، ص ١٠٨.

(٤٤) ينظر «النقد الأدبي» لأحمد أمين، ص ٢٢، وأطلقت ألفاظ